الطير فى الأدب العربى

محمد أحمد سعيد أبو زبيد



منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

المكتبة الصغيرة

٤٣

الطير في الأدب العربي

محمد أحمد سعيد أبو زيد

حقوق الطبع محفوظة

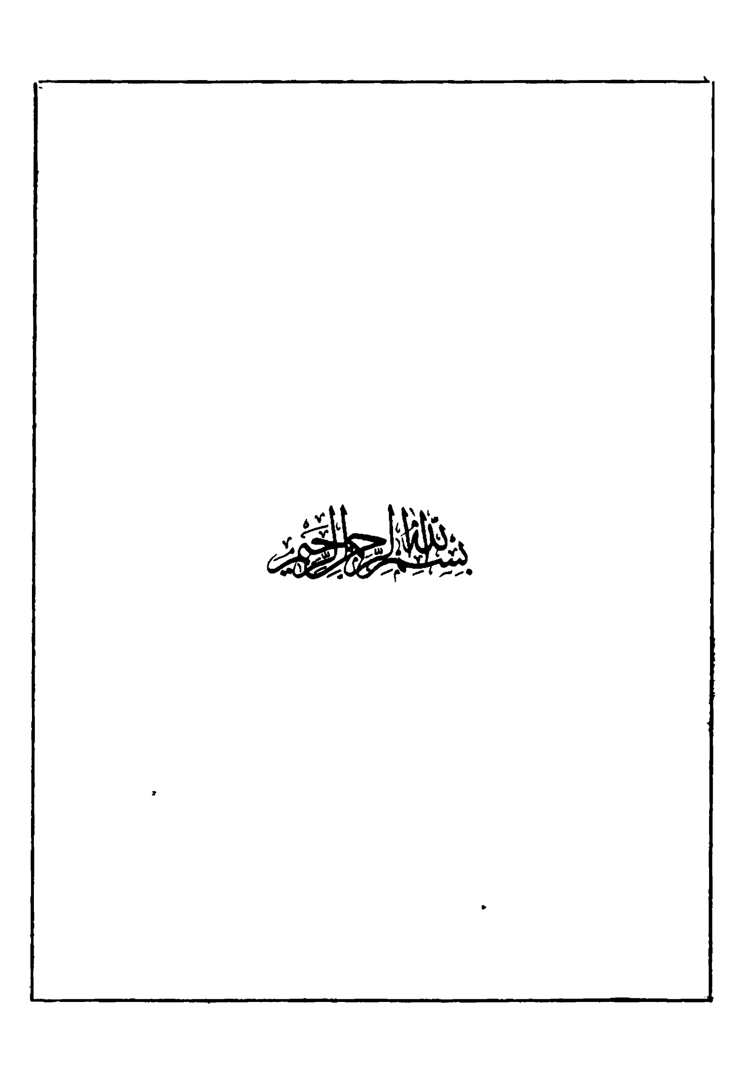
الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

منشورات

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
ص.ب: ١٥٩٠
الرياض: ١١٤٤١

الغلاف بريشة الفنان/محسن منصور


بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوعـــات

رقم الصفحة

الإهـــــــداء

إلى أولئك الذين وهبوا حياتهم حكراً للفكر والأدب ..

وإلى أولئك الذين سرت في عروقهم دماء المعرفة والثقافة ..

فباتوا مُتَيّمين بنبض الكلمات وحرارة الحروف ..

جميعاً .. أهدي إليهم شيئاً من العطاء ..

علّنى أمنحهم بعض الوفاء ..

المؤلف

محمد أحمد سعيد

أبو زبيد .

استهلال

لا أظن .. في هذا العالم الرحب العجيب ، حيواناً اجتذب الإنسان ، كما اجتذبه الطير .. خاصةً منها ، تلك التي ضمت إلى جمال الشكل جمال الغناء ، وخفة الحركة .. وهي ميزات لا تتوفر لأي حيوان آخر .. فلئن فتن الغزال منذ كان ، الإنسان برشاقته وجمال عينيه ، وخفة حركته .. فأين بغامه من غناء الطيور ، وصوت البلابل والشحارير .. ؟ وأين لونه من تلك الألوان الزاهية الجميلة التي تتحلى بها بعض عصافير الغناء والتغريد ؟ .

لعله .. من أجل ذلك .. ولسيطرة أخبار الطير وذكره .. على الشعر والغناء ، ورسائل الأشواق .. عنّ لي منذ أعوام ، أن أكتب شيئاً عن هذه الصلة بين الطير والأدب ..

ولكنّ هذا المشروع ظلّ مؤجلاً يلوب في خاطري ، ثم يحول بيني وبينه ، ما يحول – عادة – بيني وبين كثير من أمثاله من المشروعات الفكرية والأدبية من شواغل الحياة .. حتى إذا كان ذات يوم عرفت فيه اهتمام الأديب الأستاذ (محمد أحمد سعيد أبو زبيد) من الأردن الشقيق ، بمثل هذا البحث ، أملت أن يحقق تلك الغاية التي كانت تتلامح لي ..

ولما كانت بيني وبينه ، صداقة مراسلة .. فلقد اقترحت عليه أن يمضي فيما بدأ .. فسرعان ما استجاب مشكوراً .. وبدأ من الدأب والجهد ، ما هو جدير بالتقدير ..

وكنت ـ أثناء ذلك ، قد وقفت على كتاب (الطير في حياتنا وتراثنا) للأستاذ المحامي (عبد القادر عياش) رحمه الله .. فزودته بنسخة منه ..

وأجدها مناسبة ، أذكر فيها بالخير الأستاذ عياش الذي أصدر في دير الزور بسوريا ، مجموعة من الرسائل ، تناولت جوانب طريفة ، بذل فيها الكثير من الجهد والمال .. ولا ينبغي أن يهمل تاريخنا العربي الحديث ، مثل هذه الجهود الصامتة التي كانت تعمل في هدوء أعمالاً جليلة .

لقد بذل الكاتب في كتابه هذا ـ كما قلت ـ جهداً جديراً بالتقدير .. وجمع أخباراً كثيرة ، وشواهد غير يسيرة ، ورجع إلى مراجع حديثة ، وأخرى قديمة ، واستخلص من كل ذلك هذا الكتيب الذي تقدمه سلسلة المكتبة الصغيرة اليوم إلى قرائها .. وهي تعتقد أنها تساهم مساهمة متواضعة في تقديم عمل أدبي جديد طريف .. وترجو أن تفتح بذلك باباً لمعالجة مثل هذا البحث معالجة

موسوعية ، يمتد فيها نفس القول ، لترضي الباحثين المتعمقين ..

أما طلاب الثقافة الخفيفة .. خفيفة الظل .. فحسبهم مثل هذا الكتيب .. وحسبهم ما بذل فيه كاتبه من جهد غير يسير .

عبد العزيز الرفاعي
مدير دار الرفاعي
للنشر والتوزيع والطباعة

الرياض ٧ رمضان ١٤٠٢ هـ

المقـــــدمَة

أصل هذا الكتاب مقالة ، أعجب بها الأخ الرفاعي ، بعد أن وقعت بين يديه فأرسل من فوره مقترحاً عليَّ أن أمد من حبل صبري في هذه المقالة ، لتخرج في كتاب ينشر في سلسلة المكتبة الصغيرة ، وشرعت ملبيّاً لتلك الفكرة ، وبدأت أغوص في بطون الكتب والمراجع في رحلات شائقة ليلاً ونهاراً .. ومستفسراً لدى الأصدقاء عن بعض المراجع القديمة ، لتقريب البعيد منها ما أمكن .. وقد حقق ذلك الأخ الرفاعي بتصويره لكتاب تراثي عن الطير ، للانتفاع به كمرجع ، وحقاً كان مصيباً في عمله .. جزاه الله خير الجزاء .. فهو يجمع بين الكلمة والوظيفة ، وفيّاً لهما .. وهو في ذلك .. ذو وفاءين .. وفاء القلم .. ووفاء العلم .. وإنني لأستذكر ذلك من لقب أبي الفتح علي بن أبي الفضل محمد المعروف ـ بابن العميد ـ (بذي الكفايتين) .. كفاية السيف وكفاية القلم .. ولعل شبهاً بينهما .

والمرء يأنس بالطير في أجواء الطبيعة ، بما يرسله من نغمات عذبة ، وأصوات رخيمة . تدفع بالمرء لأن يستجلي ما علق به من هموم ومتاعب ، ويستبدلها بعزف رائع على أوتار نسائم الصبا .. ليهنأ هناك بعيداً عن ضوضاء الحضارة ..

وفضلاً عن ذلك ، ولجمال الطير ، ونكرار ذكرها في أشعار العرب ، فقد لجأت إلى وضع هذا الكتاب .. وفاءً لها .. وتجسيداً للاعتبار منها في حياة البشر ، وما تنزع إليه من رموز الطهر والصفاء والبراءة والجمال والحرية ، والله أسأل أن أكون قد وفقت في ذلك .

محمد أحمد سعيد أبو زبيد

المشارع في ٥ / ٣ / ١٩٨٠ م
١٨ / ٤ /١٤٠٠ هـ

مَدخل إلى الطير

الطير صنفان ، أليف وجارح ، بل قوي وضعيف ، وقويها يفترس ضعيفها أحياناً ، كما تناقلت ذلك بعض الأشعار ، وأشارت إليه إشارة واضحة ، فصغار الطير تخشى وتهاب الجارح والقوي منها ، كما جاء في قول الشاعر[1] :

تفادي كُماة الخيْل منْ وَقْعِ رُمْحِهِ
تفادي خشاش الطّير من وقعِ أجْدَلِ

وكذلك[2] :

من آل أبي موسى ترى القوم حوله
كأنهم الكـــروان أبصرن بازيـــا

والأليف من الطير ، غالباً ما نستمتع بجمال لونه ، وحسن ريشه ، ورخامة صوته ، ورقة صدحه ، كالبلابل وعصافير الدوري ، والشحارير ، والكناري والكروان والحمائم وغيرها .

ويلجأ الناس عادة إلى حبس بعض أنواع الطير في أقفاص توضع في محلاتهم التجارية ومنازلهم حتى لا تفارقهم حلاوة أنغامها ، ومن

---

(١) ديوان الحطيئة . المؤسسة العربية للطباعة والنشر . بيروت (ب.ت) . ص ١٧٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ١٧٣ .

الطيور الجوارح النسور والعقبان والصقور والشواهين والحدآن والعواسق والطغرل والباز والبوم وغيرها .. وقد حباها الله من مقومات الافتراس ما يساعدها على التقاط فريستها ، من مخالب شديدة التقوّس طويلة ، ومناقير حادة مدبّبة الأطراف معقوف أعلاها على أسفلها ، وأجنحة قوية ، ورؤية بصرية حادة ، وقد لجأ الإنسان إلى ترويض بعضها كالصقور ، حيث أصبحت هواية تربيتها والصيد بها ، هواية محببة وشائقة عند بعض الملوك والخلفاء والأمراء وأصحاب الجاه (ومن أشهر من صادوا بالصقور في فجر الإسلام ، حمزة بن عبد المطلب ، عم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفي عصر بني أميّة ، كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود ، إذ كان مولعاً بالصيد ، ثم هشام بن عبد الملك ، وفي عصر بني العباس كان أبو العباس السفاح شديد الولع بالضواري ، شديد اللهج بالصيد ، ثم أبو جعفر المنصور ، ثم كان الرشيد أيضاً متعلقاً بحب هذه الرياضة ، فكان يخرج للصيد ومعه عدد من أصدقائه ، ورجال دولته ، وبعض شعرائه مثل أبي نواس)[٣] .

---

(٣) الصيد بالصقور . مقالة للدكتور محمود عباس حمودة . مجلة التربية القطرية العدد ٢١ / ١٣٩٧ هـ . ص ٤٥ .

وهواية الصيد والقنص مازالت منتشرة إلى يومنا هذا ، وإن كانت قديماً أفضل ممّا هي عليه الآن ، ممارسةً واهتماماً ، وقد يكون التقدم الحضاري الذي وصلت إليه البشرية قد طغى على ذلك ، حيث كانت تخصص أسواق تجارية في المدن العربية القديمة لبيع وتسويق بنادق الصيد بأنواعها المختلفة ولوازم الصيّادين التي يحتاجونها ، ومن الأشعار التي ذكرت القنص والصيد(٤) :

وشرُّ ما قنّصَتْــهُ راحتـــي قنص
شهْبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَّخـمُ

أما ابْن الرومي فيصف لنا ذهابه إلى الصيد مبكراً بكل خفّة ورشاقة مع بعض أصدقائه قائلاً(٥) :

وقد أغتدي للطير والطير هجَّعٌ
ولو أوجست مغداي ما بتن هُجعا
بخلّين تما بي ثلاثـــة إخـــوةٍ
جسومُهـم شتـى وأوراحهـم معـا

---

(٤) ديوان المتنبي . دار صادر . بيروت (ب.ت) . ص ٣٣٤ .
(٥) ابن الرّومي حياته من شعره . عباس محمود العقاد . دار الكتاب العربي . بيروت . [illegible] .
ص ٣٥٨ .

مطيعين أهواءً توافت على هوى
فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا

ومن الطير ما هو مهاجر ، حيث تهاجر بعض الطيور عبر القارات ، وفي مواسم معينة من السنة ، الأمر الذي حيّر العلماء وأدهشهم . ومن أشهر الطيور المهاجرة ، الفرّي واللقلق والخطّاف القطبي وغيرها .. ويقال أن هولاكو عندما غزا الشرق العربي ، سأل عن أحد المماليك ، فأجابوه بأنه «أمير شكار»[٦] فولّاه شؤون الطيور الجوارح وقرّبه إليه .

ومن طريف ما يذكر عن الطير ، أن الأقدمين كانوا يضعون أواني مملوءة بالحب في رؤوس المآذن ليلتقط منها الطير ما يسد به رمقه ، زمن القحط والبرد القارس ، وذلك طمعاً في الأجر والمغفرة من الله سبحانه وتعالى ، وكذلك كان بعض رجال الدين وأولياء الله الصالحين يتشبّهون بالطير ، ونذكر منهم الإمام عبد القادر الجيلاني الذي

---

(٦) أمير شكار : جاء في العدد الأول من السنة الثالثة لشهر فبراير ١٩٧٧ م من مجلة الدارة السعودية ، وفي الصفحة ١٠١ : أنها مهنة أو وظيفة استحْدثت في عصر العباسيين ، كما عرفها السلاجقة والمغول والمماليك . يقوم صاحبها بالإشراف على الطيور الجوارح التي يصطادها السلاطين والأمراء وترتيب أمور صيدها .

شبّه نفسه بالبلبل تارة وبالباز الأشهب تارة أخرى ، قائلاً[٧] :

أنا بلبل الأفـراح أشدو دوحهـا
طربـاً وفي العليـــاء باز أشهب

وفي مدائن صالح الواقعة على طريق الحج بالسعودية ، مجموعة من الجبال ، يعرف أحدها باسم ، «جبل الطوير»[٨] وعلى قمّته تماثيل لبعض الطيور ، وحفر منحوتة ، تمتلىء بماء المطر فتردها الطيور والوحوش الكاسرة ، لتطفىء عطشها ، وربما ذهبت تسمية الجبل لذلك .

---

(٧) مجلة الدارة السعودية/العدد الأول/السنة الثالثة/١٩٧٧م . ص٧٤ .

(٨) انظر في ذلك ص ٧٦ ، ٧٧ من كتاب مدائن صالح تلك الأعجوبة / ط ٢ . محمد عبد الحميد مرداد سلسلة المكتبة الصغيرة / العدد ٢٩ . الرياض . يوليو ١٩٧٩ م .

الطير في اللغة

الطير في اللغة : كل ذي جناح من الحيوان ، وقيل كذلك : كل ما يستطيع أن يطير في الهواء بجناحين ، وإن كان الأول أقرب إلى الدقّة والصواب ، لأن هناك طيوراً فقدت قدرتها على الطيران ، كطائر البطريق الذي حباه الله عِوَضاً عن ذلك ، القدرة على العوم في الماء . والطير عند العرب : ما تيمنت به أو تشاءمت منه .

ويقصد به كذلك عمل الإنسان الذي قلّده ، ورزقه وبه فسْر به قوله تعالى :

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائرهُ في عنقه ﴾

ومنه الحديث : بالميمون طائره ، أي بالمبارك حظه . ويجوز أن يكون أصله من الطير السانح والبارح .

ـ قال الأعشى :

زجرت لهم طيرُ النحوس بأشأم .

ـ وقال أبو ذؤيب :

زجرت لهم طير الشمال ، فإن تكن

هواك الذي تهوى ، يصبك اجتنابها

ويقال : طار طيْراً وطيراناً وطيْرورَة : بمعنى أخف وأسرع .. وطار الطائر : أي تحرك في الهواء بجناحيه .. وساكن الطائر : بمعنى وقور جليل ..

وكأن على رؤوسهم الطير : أي ساكنون هَيْبة ، وأصلُه أن الغراب يقع على رأس البعير فيلقط منه القُراد ، فلا يتحرك ، لئلا ينفر عنه الغراب ، ومنه قولهم : (لا طير إلاّ طير الله) و (لا أمر إلاّ أمر الله) و (خير الله لا خيرك) ..

وجاء في لسان العرب : إن الطائر يجوز أن يكون اسماً للجمع ، ويجمع على أطيار وطيور ، أما الجوهري فقد أبان عن رأيه قائلاً : الطائر جمعه طير مثل صاحب وصحب ، وجمع الطير طيور وأطيار ، مثل فرخ وأفراخ .

والطير اسم للجمع . وتصغيره الطويْر .. وقد يقع على الواحد ، كما أقرّ ذلك قطرب وثعلب وأبو عبيدة والأزهري ، وخالفهم ابن سِيده ، إلاّ أن يعني به المصدر .

الطير في القرآن الكريم

إستأثرت الطيور بقدسيّتها من خلال ورود ذكرها في الكتب السماوية المقدسة ، ومن بينها القرآن الكريم ، حيث اشتمل على قصص عديدة للطير منها قصص الهدهد ، والطير الأبابيل ، وغراب بني آدم .

وقد ورد ذكر الطير وما يتفرع من لفظه في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرّة ، منها خمس مرات في سورة النمل ، وثلاث مرات في سورة المائدة ، ومرتان في كل من سور الأعراف والأنعام ويوسف ويسٓ ، ومرة واحدة في كل من سور البقرة والنحل والأنبياء والحج والنور وسبأ وصٓ والملك والواقعة وآل عمران والفيل والإسراء والإنسان .

وقد جاء ذكر الطير مقروناً بأل التعريف أربع عشرة مرة في القرآن الكريم ، منها ثلاث مرات في سورة النمل ، ومرتان في سورة يوسف ، ومرة واحدة في كل من سور البقرة والمائدة والنحل والأنبياء والحج والنور وسبأ وصٓ والملك .

ففي سورة النمل :

قال تعالى :

﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾
الآية : ١٦ .

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ﴾
الآية : ١٧

﴿ وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد ﴾
الآية : ٢٠

ومن خلال هذه الآيات يصوّر لنا سبحانه وتعالى رحلة سيدنا سليمان رضي الله عنه مع الطير ، حيث اقترن اسمه مع الهدهد ، فلا يكاد يذكر له اسم إلاّ والهدهد على لسان ذاكره ، كأنه والحالة هذه قد أصبح شارة مميزة له ، في أحاديث القصص القرآني ، التي يكثر مشافهتها بين الناس ، ومن ذلك ما أشار إليه الشاعر الحسن بن بشار النفيس في أشعاره :[١] .

ما كان عيباً لو تفقدتني
وقلت : هل أتهم أو أنجدا ؟

(١) عبد الله بن محمد بن خميس ، الشوارد / الجزء الأول . الرياض ١٩٧٤ م / ص ١٦٠ .

فعـــادة السادات من قبلنـــا
تفقـــد الأتبـــاع والأعبـــدا
هذا سليمـــان على ملكـــه
وهـــو بأخبـــارٍ له يقتـــدى
تفقـــد الـــطير وأجناسهـــا
فقال : (مالي لا أرى الهدهدا)

ـ وفي سورة يوسف ـ قال تعالى :

﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ﴾
الآية ٣٦ .

﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾
الآية ٤١ .

ـ وفي سورة البقرة ـ قال تعالى :

﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ﴾
الآية ٢٦٠ .

ـ وقد جاء ذكر الطير أيضاً ، بقوله تعالى :

﴿ إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾
الآية ١١٠ / المائدة .

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جوّ السماء ﴾
الآية ٧٩ / النحل .

ـ والطير جند من جنود الله تعالى ، يسخرها بأمره ، تذهب وتأتي متى شاء .

﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير ﴾
الآية ٧٩ / الأنبياء

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير ﴾
الآية ٣١ / الحج .

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾
الآية ٤١ / النور .

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير ﴾
الآية ١٠ / سبأ .

﴿ والطير محشورة كل له أوّاب ﴾

الآية ١٩ / صٓ .

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ﴾

الآية ١٩ / الملك .

الطير في المأثورات الشعبية

١ ـ الطير في الأمثال الفصحي :

الأمثال هي تلك الأقوال المختصرة التي تعطي مدلولاً خاصاً وتعبيراً صادقاً لصورة معينة من صور الحياة ، فهي بالتالي سجل واقعي لحياة الشعوب وتاريخهم ، ومرآة عاكسة لعقليتهم وأمزجتهم ، لأنها تنّم عن بديهة قوية ، وخاطرة سريعة .. عبر ذلك كان للطير كسب رائع بأجنحة محلّقة ..

ومن الطيور التي تُضرب فيها الأمثال طائر الحبارى الذي يمتاز بالغباوة والبله ، لأن أنثاه إذا فارقت بيضها تذهل عنه ، فتحضن بيض غيرها ، فلذلك قيل «أبله من الحبارى»(١) وكذلك «وعيد الحبارى الصقر)(٢) أي أن طائر الحبارى يقف للصقر ليحاربه من شدّة الرعب منه ، وفي ذلك قال الشاعر :(٣)

لقل غناء عنك ايعاد بارق
وعيد الحبارى الصقر من شدّة الرعب

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام / الطبعة ٢٢ . دار المشرق ـ بيروت . ص ٩٧٦ .

(٢) (٣) انظر مجلة الفيصل . العدد العشرون . يناير ١٩٧٩ م . ص ٥٦ .

وللمذعور أيضاً قيل «طارت عصافير رأسه»[٤] ، ولئن كانت الطيور صغيرة في أجسامها إلّا أن عيونها كبيرة حادة في بصرها ، بما يفوق بصر الإنسان مرات عديدة ، فكثرت حولها الأقوال وضربت بها الأمثال منها «أبصر من عقاب»[٥] ، و «أبصر من الوطواط في الليل»[٦] ، والنسر أبصر الطيور قاطبة ، وزعمت الفرس بأنه يبصر جيفته على بعد أربعمائة فرسخ وهو في السماء ، حيث قيل فيه المثل الآتي «أبصر من نسر»[٧] ، والحديث عن عيون الطير لا ينتهي لجمال تلك العيون ، التي استرعت انتباه الناس ، ضاربين بها الأمثال معبّرين عن مدى إعجابهم ودهشتهم ، بجمال عيون الشخص الذي أرادوا إظهار جمال عينيه فضرب بذلك القول التالي «عيون طير»[٨] ومن بين فرائد الأمثال التي تناقلت ذكر الطير : «لو كان في البومة خير ما تركها الصيّاد»[٩] يضرب للشيء الذي يعرض عنه الناس ، ويزهدون فيه ،

---

(٤) محمد بن ناصر العبودي . الأمثال العامية في نجد . الجزء الثاني . دار اليمامة . الرياض . ص ٧٦٤ .

(٥) (٦) انظر المنجد في اللغة والاعلام . ص ٩٧٣ .

(٧) مجلة الفيصل . العدد ١٩ ديسمبر ١٩٧٨ م . ص ٦٦ .

(٨) مجلة الفصول الأربعة . العدد الرابع . سبتمبر ١٩٧٨ م . ص ١١١ .

(٩) مجلة الوعي الإسلامي . العدد ١٤٨ . الكويت . ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ ص ٨٧ .

و «أبكر من غراب»[10] وهو أشد الطيور بكوراً وتقول العرب بهذا الشأن ، « باكر تسْعَدْ » و «البركة في البكور»[11] وكان يقال في صفة الرجل الجامع : له وَثْبة الأسد ، وروغان الثعلب ، وختل الذئب، وجمع الذّرَّة ، وبكور الغراب[12] ، ويصف أحمد شوقي العمال في ذهابهم ومجيئهم بالطير ، مبكرة تذهب خماصاً وتعود بطاناً[13] :

أيها الغـــادون كالنحـــــــــ
ـــــل ارتيـــاداً وطـــلابـــــاً
في بكـــور الـــطير للـــرز
ق مجيئـــــاً وذهـــابـــــــاً

ومن الأمثال العربية القديمة ما ذكره الأبشيهي «طارت الطيور

---

(١٠) انظر المنجد في اللغة والاعلام . طبعة ٢٢ . دار المشرق . بيروت . ص ٩٧٦ .
(١١) منير بعلبكي . قاموس المورد . جزء مصابيح التجربة . بيروت . دار العلم للملايين . طبعة ١٩٨١ م . ص ٨٣ .
(١٢) من كتاب عيون الأخبار «الحرب والفروسية» لابن قتيبة الدينوري . دمشق ١٩٧٧ م . ص ٥٥ .
(١٣) من ديوان الشوقيات . الجزء الأول . أحمد شوقي . دار الكاتب العربي . بيروت (ب . ت) . ص ٩١ .

بأرزاقها»[١٤] ، وما ذكره الميداني «الطيور على ألّافها تقعُ»[١٥] ، وقيل أيضاً «إن الطيور على أشكالها تقع» و «كُلُّ طيْر يأوي إلى شكْلهِ»[١٦] ، ويقترب من هذا المثل قول الشاعر :

وكل طير إلى الأشكال موقعها
والفرع يجري إلى الاعراق منتزعاً[١٧]

كما ورد أيضاً ذكره على لسان الزمخشري بلفظ ، «إلى ألّافها تقَعُ الطير » وقولهم كذلك : « الطيور على أشباهها تقع »[١٨] .

ومن الأمثال ما هو واضح الدلالة ، سهل الإدراك ، كثير التكرار ، كأن يقال « خلا لكِ الجو فبيضي وأصفري »[١٩] وأصله أن

---

(١٤) محمد بن ناصر العبودي . الأمثال العامية في نجد . الجزء الثاني . دار اليمامة . الرياض . ص ٧٦٤ .

(١٥) منير بعلبكي . قاموس المورد (مصابيح التجربة ص ٢١) . بيروت . دار العلم للملايين . ١٩٨١ م .

(١٦) المرجع السابق . نفس الصفحة .

(١٧) محمد بن ناصر العبودي . الأمثال العامية في نجد . الجزء الثاني . دار اليمامة . الرياض . ص ٧٨٨ .

(١٨) نفس المرجع . ص ٧٨٧ .

(١٩) مجلة الوعي الإسلامي . العدد ١٧٣ . الكويت . جمادي الأولي ١٣٩٩ هـ . ص ٨٠ .

طرفة بن العبد ، وهو من شعراء الجاهلية ، كان قد نصب فخاً للقنابر ، فلم تقترب منه ، وكأنها قد شعرت والحالة هذه بخطر الفخ وعندما زال الخطر بزوال الفخ أقبلت تلتقط الحب المنثور ، فوقف الشاعر وقال :

خلا لك الجو فبيضي وأصفري
يا لك من قبرة بمعمـــــــــــر
قد رحل الصيـاد عنك فابشري
ونقــرّي ما شئت أن تنقـــــري
لابد من صيدك يومـاً فاصبري
ورفـــع الفـــخ فمـــــاذا تحذري

ومـن الأمثـــال أيضاً قول الشاعر :[20]

ما طار طير وارتفـــــــــــــــع
إلاّ كما طـــــــــــار وقـــــــــع

(٢٠) الشوارد . الجزء الأول . تأليف عبد الله بن محمد بن خميس . الرياض ١٩٧٤ م .

٢ - الطير في الأمثال العامية

ومن الطير يستمد الناس العبرة في حياتهم ، ذلك المخلوق الصغير ، كثرت الأحاديث والأمثال عنه ، وشهّية ذلك لا تقل شأناً عن شهّية لحم الطير اللذيذ «مش كل الطير اللّي بيتاكل لحمهُ»[١] ، و «قصقص طيرك لا يلوف بغيرك»[٢] دعوة صريحة لإهاضة أجنحة الطير ، ليبقى عاجزاً عن الطيران لا يقوى عليه ، لئلا يفسد عند الآخرين متخلياً عن صاحبه[٣] ، ومن الأمثال أيضاً «يبلبل»[٤] نسبة إلى البلبل أي أنه فرح طرب ، وكذلك «عصفور جنة»[٥] كناية عن

---

(١) مجلة العربي . العدد ٢٥١ تشرين الأول ١٩٧٩م . ص ٨٢ .

(٢) مجلة العربي . العدد ٢٤٧ يونيو ١٩٧٩م . ص ١٢٢ .

(٣) يصف لنا الشاعر سوء حالته ، كأنه طير فقد ريش جناحيه ، فأصبح عاجزاً عن الطيران ؛ كأنه والحالة هذه يعقد لنا مقارنة بينه وبين الطير ، فيقول شعراً :

إليكَ يا ابنَ أُبي .. أشكو وقد نَضَجَتْ
مِنّي المواجعُ ، بلْ ضَلَّتْ بِيَ السُّبُلُ
كأنني طائِرٌ قُصَّتْ قَوادِمُهُ
يُعيقُهُ العَجْزُ إذ يَرْقى بِهِ الأمَلُ

ـ راجع ديوان « نشوة الحزن » شعر محمد سعد المشعان - الرياض ١٩٧٨م . ص ١١٤ .

(٤) ، (٥) مجلة الفصول الأربعة . العدد الثالث . يونيو ١٩٧٨م ص ٢٢٤ ، ص ١٩٩ .

الطهارة والبراءة ، و «شواربه يوقف عليهن الطير»[٦] كناية عن طولها ، و «الواقواق لا يصبح صقراً»[٧] ، و «الكلمة ليست عصفوراً إذا ما طارت تستطيع التقاطها»[٨] ، ولمن يخلط بين الأصالة والتقليد يقال :

«زي الغراب : ما تعلمش مشيّة الحجل ونسى مشيته»[٩] ، وفي الاعتماد على النفس وعدم التواكل على الغير قالوا : «ألف عصفور ما بترس قدر»[١٠] ، وللشخص الذي اعتاد التكسب من مصدر معين لا يستطيع تغييره يقال : «الديك يموت وعينه عالمزبلة»[١١] وللشيء الذي يحدث مرة واحدة ولا يتكرر «زي بيضة الديك»[١٢] ، ويقولون في الفصاحة والذكاء والفطنة «الديك الفصيح من البيضة يصيح»[١٣] ، وفي المفاضلة بين الأمور واستدراكها قبل فوات الأوان

---

(٦) مجلة الفصول الأربعة . العدد الثاني . ١٩٧٨م . ص ٤٧ .

(٧) ، (٨) مجلة الفنون الشعبية الأردنية . العدد السابع . آب ١٩٧٥م . ص ٦١ ، ص ٦٢ .

(٩) مجلة التراث الشعبي . العدد ١١ . السنة الثامنة . بغداد ١٩٧٧م . ص ١٩٤ .

(١٠) مجلة التراث الشعبي . العدد العاشر . بغداد ١٩٧٧م . ص ٢٠٣ .

(١١) ، (١٢) مجلة التراث الشعبي . العدد ١١ . ص ١٩١ ، ص ١٩٤ .

(١٣) حسين عبد الله محضر – الأمثال العامية في مكة المكرمة . مطبوعات نادي مكة الثقافي ١٣٩٥هـ .ص ٧٤ .

«عصفور باليد ولا عشرة عالشجرة»[١٤] ، و «بيضة اليوم خير من دجاجة الغد»[١٥] ، ويقال للشخص الذي يلحق به الأذى ، من جرّاء عمل فاحش يقوم به «دجاجة حفرت على رأسها عفرت»[١٦] ، و «العصفور بيتفلّى والصيّاد بيتقلّى»[١٧] ، يضرب لمرارة الانتظار وسأم الترقب ، وقالت العرب أيضاً «كثرة الصيّادين بتطير العصافير» و «فرخ البط عوّام»[١٨] .

---

(١٤) مجلة التراث الشعبي – العدد ١١ . بغداد ١٩٧٧م . ص ٢٠٨ .

(١٥) انظر المنجد في اللغة والاعلام . ص ٩٧٦ .

(١٦) يكثر إستخدام هذا المثل في الأردن وفلسطين وبلاد الحجاز .

(١٧) مجلة التراث الشعبي . العدد ١١ . السنة الثامنة . بغداد ١٩٧٧ م . ص ٢٠٨ ، ويلفظ هذا المثل أيضاً بقولهم : (الطير يتفلّى والصيّاد يتقلّى) انظر بذلك كتاب الأمثال العامية في مكة المكرمة تأليف : حسين عبد الله محضر . مطبوعات نادي مكة الثقافي . ١٣٩٥ هـ . ص ١٠٥ .

(١٨) مجلة التراث الشعبي . العدد ١١ . بغداد١٩٧٧ م . ص ٢١٤ .

الطير في التراث الغنائي

لا يخفى على أحد منا ما لطائر الحمام من فضل في نقل الرسائل قبل ظهور وذيوع البريد العادي ، فكان الحمام الزاجل ينقل الرسائل والمكاتبات ، ويؤتمن على إيصالها إلى الجهة التي يُرْشد ويُدلّ عليها .. وإنني لأستذكر بذلك السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي أنشأ بريداً سريعاً بالحمام الزاجل بين دمشق والقاهرة بعد أن عمل على إحياء مجد الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد .

ولعلّ أهازيجنا وأغانينا الشعبية ، تجسَّد لنا ذلك جلّياً في جنباتها ، فيستعين صاحب الأغنية الشعبية بطير الحمام ، ليوصل له « سلاماته » إلى أولئك الذين هاجت عواطفه إليهم شوقاً .. الأمر الذي جعله يتذمرّ من الأيام التي تمرّ دون رؤية أحبائه .

يا طير الحمـــام .. سلّـــم عليهم
يا طير الحمام ..
ما أطول ها الأيام .. إشتقنا ليهم
ما أطول ها الأيام ..[1]

---

(١) أنظر «ثقافتنا في خمسين عاماً» تأليف محمود العابد وآخرون / عمّان ١٩٧٢ م . ص ٣٨٦ .

وتتجلّى هذه الصورة بأغانٍ عديدة ، تأخذ أنماطاً غنائية تراثية مختلفة منها :

يا طير يلّي على كبد السما بنحوم
ما جبت يا طير من عند الأحباب علوم[٢]

والطبيعة خير مرتع للطيور ، ترسل فيها زقزقاتها من فوق أغصان الأشجار ، وهي تتراقص مترنحة في مهب الرياح على حوافي الجداول والينابيع ، فتسطّر بذلك لوحة طبيعية أخّاذة ، في دنيا الجمال والافتتان ، تسحر بروعتها الألباب ، فكيف تنغمس تلك اللوحة في الغناء العربي؟ :

على غصون البان عصـــفورتان
تتناجيـــان
بأعذب الألحـــان أغاني الوجدان
على ضفاف الغدير عذب الخرير
تتساقيان[٣]

(٢) من مقالة في مجلة الفنون الشعبية الأردنية / العدد الثاني عشر / ١٩٧٦ م . ص ٦١ .

(٣) أحمد رامي قصة شاعر وأغنية تأليف د . نعمان أحمد فؤاد / سلسلة اقرأ (٣٦٨) . ص ٨٥ .

والبلبل من أكثر أنواع الطيور ، ترديداً على ألسنة الناس ، خاصة في الغناء الشعبي ، وكيف لا ينساب ذكر البلبل رقراقاً ، كرقّة صدحه ، ورخامة صوته ، وحلاوة حديثه في غنائنا العربي :

هو القمر عنده خبر
عن طول سهـــــدي
هو البلبـل لما يرتـل
يعــرف وجـــــدي[٤]

والعصافير لا تقل شأناً عن البلابل . فلها نصيب واضح من الذكر في الأغنية التالية :

عصفور هدّى ع عروق الدّاليّة
(مرّتين)
ما نوخذ إلاّ من البنات الغالية
(مرتين أو أكثر)

---

(٤) أحمد رامي قصة شاعر وأغنية . ص ١٥٦ .

عصفور هدّى ع عروق الشجرة

(مرّتين)

ما نوخذ إلاّ من بنات الأمرا[٥]

(مرّتين أو كثر)

والعتابا نمط شائع بين أنماط الغناء العربي ، ومن بين صور العتابا الغزلية الرقيقة التي تمتاز بالبساطة في الغناء الشعبي :[٦] .

يا مصعب يومن أخي مزّقني[٧]

نزل دمعي على خدّي ما يسايل[٨]

وتلوج العين ما تلاقي حدا .. با

على وليفن جفاني ما يسايل[٩]

لون الطير بينهم لأبعتلو رسائل[١٠]

---

(٥) من مقال «يوم الزفاف في قرى يافا» . مجلة الفنون الشعبية . العدد التاسع . شباط ١٩٧٦ م . ص ١٣٥ .

(٦) من مقال «ألوان من الأغاني الشعبية» . مجلة الفنون الشعبية . العدد الخامس . شباط ١٩٧٥ . ص ١٣٢ .

(٧) فرقني : فارقني .

(٨) ما يسايل : لا يسأل .

(٩) على وليفن : على صاحب .

(١٠) لون : لو أن .

عمنّوا سرع في رد الجـواب[11]

ويستشف المرء صوراً رقيقة جذابة ، من بعض الأغاني تبعث في نفسه الانتشاء والمرح ، وكأن إقتران ذكر الطير مع الغناء .. مبعث رائع على الجمال والعذوبة ...

وبدا النور فصاح البلبل داعياً للشدو أسراب الطيور
والنجـــوم في الغيـــوم
لبست منها نقــــاب
والشفـــق في الأفـــق
لونـــــه ورد مذاب[12]

وقد ورد ذكر الطير في ترانيم الأمهات لأطفالهن الصغار ، وكأن هذه الترانيم قد جاءت انسجاماً مع عواطف الأمومة والحنان ، لإضفاء الدّعة والسكون والاستقرار ، وكثيراً ما تستميل الأمهات طائر الحمام في أغانيهن لتنويم أطفالهن ، كما نلحظ في هذا النموذج :

تنام وأنا اهدي لك

---

(١١) عمنّوا : لأنه / سرع : أسرع .

(١٢) أحمد رامي قصة شاعر وأغنية . ص ١٥٣ .

والعافية من الله تجي لك
يا طيور ويا حمامْ
دعوا حمّودي تا ينام
ينام بالسلامة بحفظ الله(١٣)

وكـــــذلك في الأغنيـــــة التاليـــــة :(١٤)
نام يا إبني نام
لادبح لك طير الحمام
يا حمامي لا تخافي
بضحك على ابني تا ينام

وفي أغاني الأفراح ، تردد النساء في أغانيهن التراثية ، كما هم الرجال أيضاً ، بعض المقاطع التي يصفن بها العروس وصفاً شاملاً ، من حيث عيونها ، شعرها ، وخدودها ، ونهودها ، وما إلى ذلك .. كما نجد في هذه الأغنية الشعبية تصويراً واضحاً لتلك العروس(١٥) :

---

(١٣) أغاني ترقيص الأطفال عند العرب / أحمد أبو سعد / بيروت ـ دار العلم للملايين . شباط ١٩٧٤ م . ص ٢٨ .
(١٤) أغانينا الشعبية في الضفة الشرقية من الأردن . هاني العمد . ص ١٣ .
(١٥) مجلة الفنون الشعبية / العدد الثالث عشر . شباط ١٩٧٧ م . ص ٥٠ .

كُحْل الهوى يا عين مصحون بمهوان[16]
موزون بالميـزان ربـع الوقيـــــة
وقرونها يا طير تقول حنشـــان
حنشـــان على أمهـــا ملتويـــة
وخدودها يا طير تقـــول تفـــاح
تفاحـة على أمهــا مســـتويـــة[17]

وكما جاء للطير حظ مع الفرح ، نجده أيضاً مع الترح والحزن والتحسّر على عهد ولّى ومضى ، كما في هذه الأغنية[18] :

زعق طير الدجى وبرجم يا سيدي[19]
على جنح الدجي واكتب يا سيدي
نزل عاسور عـكـــا واختفـــي[20]

وحتى في دنيا التهكم والسخرية كان للطير حديث ، تناولته ألسنة المغنين بروح تطفح بالخفّة والمرح والطرب والدعابة ، كل ذلك

---

(١٦) بمهوان : بالهاون .
(١٧) مستوية : ناضجة .
(١٨) أحمد رامي قصة شاعر وأغنية / د . نعمان أحمد فؤاد . ص ١٣٣ .
(١٩) برجم : مأخوذة هنا من السجع .
(٢٠) عاسور عكا : على سور عكا : وهي مدينة ساحلية شمال فلسطين المحتلة .

سطرته لنا كلمات الأغنية التالية[٢١] :

وحياة ربي يا جماعة ما شهدنا زور
متين ليلة طبخنا فخذة العصفور
عزمنا الوزرِ والنّورَ والشام واستانبور
وظل الشحم واللحم على حيطانا منشور

(٢١) راجع الفنون الشعبية الأردنية / العدد التاسع / شباط ١٩٧٦ / ص ٩٩ . وهي من مقالة بعنوان «مدخل لدراسة الأكل الشعبي» لنمر سرحان .

الطير بين الوهم والاسطورة

كانت الشعوب القديمة تعتقد بأن الطيور ما هي إلاّ أرواح الموتى بعد أن تنسلخ عن أجسادها .. لذا نستطيع القول بأن للطير صلة بالعقيدة ، جسّدتها أساطير ومعتقدات الفرس والرومان واليونان .

وقد كان للطير تأثير واضح في معتقدات العرب قبل الإسلام ، يعلّقون عليه آمالهم في حلّهم وترحالهم ، فهم ينتظرون الطير وهي تحطّ على الأشجار ، فإن طَارت نحو جهة اليمين تفاءلوا واستبشروا خيراً ، وهمّوا لإنجاز رحلاتهم وأسفارهم وأعمالهم ، وإن طارت نحو جهة الشمال تشاءموا بشر مستطير سيحل في ربوعهم ، إلاّ إنهم تركوا ذلك بعد مجيء الإسلام ، الذي قوّض أفكارهم ومعتقداتهم التي كانوا يتمسكون بها .

والعرب قديماً ، كانوا يعتقدون بوهْميّة بعض الطيور كالهامة والعنقاء ، فطائر الهامة ، طائر صغير خرافي من فصيلة البوم ، أما أسطورته فلم تأت إلاّ لتبرير إصرارهم على الثأر والأخذ به ، فمن معتقداتهم «أن القتيل إذا قتل خرجت من رأسه هامة تقول : أسقوني فإني صدية ، وتظل كذلك حتى يؤخذ بثأره»[1] .

---

(١) انظر في ذلك : مجلة العربي / العدد ٢٢٨ / نوفمبر ١٩٧٧ م / ص ٩٢ .

وفي ذلك قال الشاعر :[٢]

أيتها الهامة صاحت :
في سهل «الواقوصة» .. في حطين ،
في قرطبة المنفى .. في صحراء الربع الخالي ،
في «قاسيون» .. «أسقوني» ..

وعن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ :[٣] «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» وزاد مسلم «ولا نوء ولا غول» .

أما طائر العنقاء الخرافي أيضاً ، فهو يرمز للأشياء التي يستحال وجودها ، وهي : (الغول والعنقاء والخلّ الوفي) وقد استخدم بعض الشعراء كلمة العنقاء للتعبير بها عن بعض مكنونات ذاتهم ، ومن أمثلة ذلك المتنبي في قوله :[٤]

وأغْرَبُ من عَنْقاءَ في الطير شكلُهُ
وأعْوَزُ من مُسْترفِدٍ منه يُحرَمُ

---

(٢) من قصيدة الجراح تكبر في المنفى . شعر محمود الشلبي / مجلة أفكار الأردنية / العدد الثامن والعشرون تموز ١٩٧٥ م . ص ١٥٤ .

(٣) الدرّ النضيد على كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب / شرح سعيد الجندول / ط ٤ / الرياض . ١٩٧٩ م ، ص ١٧٧ .

(٤) ديوان المتنبي / دار صادر . بيروت . (بلا تاريخ) . ص ١١٤ .

وكذلك[٥] :

المِقْـــوَدُ أرضٌ ضَائِعـــــةٌ
وظـــلال بيـــوتِ تنتظـــرُ
المِقْـــوَدُ شعبٌ كالعنقـــاء ،
يشـــقُّ القبـــرَ ، وينـــتشِرُ
أسطـــورةُ حبٍ مُقْتَلَـــعٍ
ويعـــود ، يعـــود ، وينهمـــرُ

وفي عالم الأسطورة كان لأمّية بن أبي الصلت رحلة مع الطير ، ومن تلك الأساطير «أسطورة الحمامة» التي جاءت في ديوان أمّية وهي أن نوحاً أرسل حمامة من السفينة ، لتستطلع اليابسة ، فلما عادت بغصن الزيتون ، صاغوا لها الطوق الذي تضرب به الأمثال ، وفي هذا يقول[٦]

وأرسلت الحمامــة بعــد سبـع
تدل على المهـــالك لا تهاب

---

(٥) من قصيدة سائق من فلسطين شعر سليمان العيسي / مجلة المعرفة السورية العدد ١٧٤ / آب ١٩٧٦ / ص ١١١ .

(٦) من مقالة لعيسى فتوح بعنوان «الأسطورة في الأدب الجاهلي» / مجلة أفكار الأردنية / العدد التاسع والثلاثون – آذار / ١٩٧٨ م / ص ١٠٥ .

تلمس هل ترى في الأرض عيناً

وغـــايتها من الماء العبـــاب

فجاءت بعد ما ركضت بقطف

عليه الشأط والـطين الكبـــاب

فلمـــا فرسوا الآيات صاغـــوا

لها طوقاً كما عقـد السحـــاب

إذا ماتت تورثـــــــه بنيها

وإن تقتـل فليس لها استلاب

واسطورة ثانية ، تدور أحداثها حول طائر الهدهد :

وأما القول في الهدهد ، فإن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التي في رأسه ثواب من الله تعالى على ما كان من برّه لأمه ، لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة .. والهدهد طائر منتن الريح ، أما الأعراب فيجعلون ذلك النتن شيئاً خامره بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه[(٧)] ولذلك يقول أمّية بن أبي الصلت » :

---

(٧) كتاب الحيوان للجاحظ / الجزء الثالث / ص ٥١٠ ، ٥١١ .

غيم وظلماء وغيث سحابة
أيام كفن واستراد الهدهد
يبغي القرار لامه ليجنها
فبنى عليها في قفاها الهدهد
مهداً وطيافاً استقل بحمله
في الطير يحملها ولا يتأود
من أمه فجزي بصالح حملها
ولداً وكلف ظهره ما تفقد
فتراه يدلج ما مشى بجنازة
منها وما اختلف الجديد المسند

دلالة الطير في الشعر العربي

دلالة الطير في الشعر العربي

لا يوجد في هذه الحياة ، أبهى إلى نفس المرء من منظر الطيور .. طيور الوداعة والتفاؤل والخير والجمال .. وهي تمرح وتسرح من شجرة إلى شجرة ، ولا أجمل وقعاً ولحناً على مسمعه من زقزقة عصفور أو صدح بلبل يتزقزق عذوبة ورقة .. تنساب قطراتها فوق الرياحين والأزهار البرية ، لتزّف إلى النفوس مع إشراقة كل صباح وإطلالة كل فجر ابتسامة الأمل ونشوة الحياة .

وإذا كان الشعر لا يخلو من إحساس مرهف ، وشعور رقيق يجيش بأحلام رائعة ، فكيف لا يكون للطير فيه ، أعز مرتع وأجمل موقع ؟! .

لقد حظي فيه الطير بأكبر قدر وأوفى نصيب ، فما من شعر أو قول يأتي به للطير ذكر ، إلاّ وجال في خاطر قارئه أو سامعه البراءة والصفاء ..

١ـ الحرية

ولعل أجمل ما قيل عن الطير شعراً وبهذا المعنى ، قول الشاعر المهجري جبران خليل جبران ، وهو يتمنى أن يكون حراً طليقاً بلا قيود كطائر الشحرور ، متنقلاً بين الأودية والجبال والسهول والفيافي والوهاد[١] :

أيّهـــا الشحــــرُورُ غرّدْ
فالغِنـــا سرُّ الوجُــــودْ
ليتنـــي مثـــلكَ حـــرٌّ
من سُجـــونٍ وقيُـــودْ
ليتنـــي مثـــلكَ رُوحـــا
في فضا الـــوادي أطيـــرْ
أشربُ النّـــورَ مدامـــاً
في كؤوس من أثيـــــرْ
أيّهـــا الشحـــرُورُ غنِّ
واصرف الأشجـــان عنّـــي

(١) البدائع والطرائف . جبران خليل جبران . المكتبة الأدبية ، بيروت (ب.ت) . ص ١٤٦ .

إن في صَوْتك صَوْتـــــاً
نافخـــــــاً في أذن أُذني

تلك الأمنية التي يتوق إليها جبران وغيره من شعراء العربية ما هي إلاّ مرآة عاكسة لإحساس يهدر في أعماق هؤلاء الشعراء ، لتجسد حقيقة الانعتاق والإفلات من القيد والظلم والإستعمار .. وكأن أبو القاسم الشابي على موعد مع حرية جبران ، فللطير طعم واحد ونكهة واحدة ، ومذاق لذيذ في أشعارهما ، بل شوطاً بعيداً في سفر الحرية .. ونور الضحى .. وشدو الطير وحركته بين الورود والأزهار(٢) :

خلقت طليقاً كطيف النّسيم ، وحراً كنور الضحى في سماه
تغرّد كالطير أيْنَ اندفعت ، وتشدو بما شاء وحْي الإله
وتمرح بين ورود الصباح ، وتنعَم بالنور ، أنّى تراه
وتمشي كما شـئت ـ بين المروج ـ وتقطف ورد الرُّبـى في رباه

وأبو القاسم الشابي ، يعتبر حقاً شارة واضحة المعالم في شعرنا العربي المعاصر ، وربما يكون مَرَدُّ ذلك نبل إحساسه ورقة مشاعره

(٢) ديوان أبو القاسم الشابي . دار العودة ، بيروت . ١٩٧٢ م . ص ٢٢٠ .

وعواطفه الجيّاشة ، ولكن يد المنون تلقّفته وهو لا يزال في العشرينات من العمر ، فحرمتنا بذلك من أشعاره ، رحمه الله بعمره القصير ، فلو قدّر له أن يتخطى ذلك العمر ، لربما يكون قد أتحفنا بذكر الكثير .. الكثير عن الطير ورموزه .. كما هو الحال في قوله الآتي[٣] :

وأغنّي مع البلابل في الغابِ وأصغي إلى خرير الوادي
وأُناجي النجومَ والفجرَ والأطيارَ والنهرَ ، والضياءَ الهادي

ولكن حرية الطير تأخذ طابعاً خاصاً في عوالم محمود درويش الشعرية وبصفة وطنية ، نَستَشِفُّ كل ذلك برمزية واضحة ، تفوح من جنبات طائره الوديع[٤] :

حلمت بالزنابق البيضاء
بغصن زيتون
بطائر يعانق الصباح
فوق غصن ليمون ..

(٣) ديوان أبو القاسم الشابي . دار العودة . بيروت . ١٩٧٢ م . ص ٢٨٦ .
(٤) مقدمة في دراسة الأدب العربي الحديث . د . عبد الرحمن ياغي . دائرة الثقافة والفنون الأردنية / عمان ١٩٧٦ م . ص ١٢٣ .

٢- الطير مدرسة الحياة

وكثيراً ما تأتي مقارنة الأشياء بين الأضداد والأنداد ، بين ما هو غثّ وسمين ، وجيّد ورديء وقوي وضعيف ، وأليف ومفترس ، ... وغير ذلك من متناقضات حياة المرء اليومية .. فلو أخذنا هذا الحديث على الطير ، لوجدنا منه الجميل والقبيح ، الوادع والجارح ، فالحمامة كما هو معروف ، رمز الوداعة والسلام ، على نقيض بعض الطيور التي تمتاز بحدّة مخالبها ومناقيرها كالغراب والنسر والعقاب والبوم والصقر .. وغيرها ، ولعل بيت الشعر الآتي يصوّر ذلك التناقض خير تصوير ، فالناس في بهرجتهم وزخرفتهم في هذه الدنيا كالحمامة في وداعتها وهدوئها ، ولكن سرعان ما تنقشع تلك الوداعة وينقلبون في أمزجتهم كالغراب القبيح في منظره ، الرديء في طبعه وسلوكه(٥) :

بَهْـرَجْتِ يا دُنْيـا فَصرتِ حَمامَـةً
والطبْعُ في التحْقيقِ طبـعُ غرابِ

والناس في معاملاتهم الحياتية ، تماماً كالطيور الجارحة التي تفترس الطيور الصغيرة كلما أتيحت لها الفرصة .. فبعضهم ضعاف كالقبرات ..

---

(٥) الشوارد . ج ١ . عبد الله بن محمد بن خميس . الرياض ١٩٧٤ م . ص ٨٩ .

والبعض الآخر مفترس يتلذّذ بغطرسته واعتدائه على الآخرين ، كالصقور وغيرها من الجوارح ، فيقول عنهم الشاعر[٦] :

كيـف يبـدي بشاشة وسروراً
من جفـاه مدى الحيـاة السرورُ
أدنُ مني .. فليس خبثاً وشراً
كلُّ ما تنطـوي عليـه الصدورُ
إنّما النـاسُ كالطيـور ، فبـعضٌ
قبراتٌ ، والبـعض منهم صقـور

وكأن هبة الخالق سبحانه وتعالى ، لا تقدّر بثمن ، حينما أجزل نعمته على بني البشر ، بالطبيعة الخلّابة والجمال الساحر والطيور الرائعة ، التي يجلو فيها الإنسان أفكاره بسماع أنغام صوتها وهي تمرح على الغصون ، وكأن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ، فترتسم في عقله وبكل هدوء .. أحلام الغد وأمنيات المستقبل ، كل ذلك جاءت بها هذه الأبيات[٧] :

---

(٦) أوراق مهملة . شعر رشيد ياسين . اتحاد الكتاب العرب . دمشق ١٩٧٢ م . ص ٧١ .
(٧) شدو الغرباء . شعر كمال عبد الرحيم رشيد . عمّان / الأردن ١٩٧٥ م . ص ٤١ .

والطير فوق الغصن يبعث صوته
لحناً ندياً بكرةً وأصيلاً
والروح في الإنسان تزخر بالمنى
ترتاد كوناً رائعاً مجهولاً
هذا لعمري بعض ما وهب الذي
صاغ الوجود وأحكم التنزيلا

ولإيليا أبي ماضي فلسفة خاصة في نظرته إلى الطير فنجده يسترّق العبر منها ، ويقتدي بها ويحث على ذلك بني جنسه من البشر ، ليركلوا التشاؤم والتباغض والأحقاد جانباً ، فلينظروا إلى الطير وهي تتغنّى فرحة سعيدة في حياتها رغم ما يُحدق بها من أخطار الصيادين في الأرض والصقر في الجو ، ورغم قصر عمرها ، فهي تشدو مع بزوغ الفجر وأفول الأصيل مودّعاً ، لتطرق نشوة صوتها مسامع البشر بدعابة موسيقية تبث من خلالها ، أجمل آيات الحب وأسمى معاني البراءة .. فهل تلقى فلسفة أبي ماضي صدى في ذواتنا[٨] ؟! :

أدركت كنهها طيور الروابي
فمن العار أن تظل جهولاً

---

(٨) منهاج النصوص الأدبية للصف الثالث الثانوي الأدبي . وزارة التربية والتعليم الأردنية . ١٩٦٧ م .

ما تراها والحقل ملك سواها
تخذت منه مسرحاً ومقيلاً
تتغنى والصقر قد ملك الـ
ـجو عليها والصائدون السبيلا

ويضيف قائلاً[9] :

تتغنّى وعمرها بعض عام
أفتبكي وقد تعيش طويلاً
فهي فوق الغصون في الفجر تتلو
سور الوجد والهوى ترتيلاً

ويضيف أيضاً[10] :

فتعلم حب الطبيعة منها
واترك القال للورى والقيلا

والشعر نغمة سائغة ، ينفثها الشاعر من قبس إلهامه ووحي إبداعه ، يبث فيها فلسفة معاناته ومحصّلة تجاربه الحياتية في مسار ونمط

---

(٩) المرجع السابق .
(١٠) المرجع السابق .

واضح لا لبس فيه ، وما الشعر إلاّ صورة تجسّد رؤية فلسفية حياتية لطبيعة واقع الأشخاص الذين يصدر عنهم الشعر ولعلّ أجمل ذلك روائع الشابي الذي لم تمهله يد القدر ، أن يكمل مشوار حياته إلاّ شوطاً قصيراً من العمر ..

وفي ذلك يقول الشاعر[١١] :

والطيورُ التي تُغنِّي وتقضي
عَيْشَهـا في ترنُّمٍ وغريد
أنها في الوجود تشكو إلى الـ
أيام عبءَ الحياة بالتغريد ..

لئن كان أبو ماضي يحث الناس في دعوته السابقة للاعتراف من مدرسة الطير .. الصفاء والمودة ونبذ الأحقاد .. إلاّ أن إلياس فرحات يتخذ من الطير خير معلم له في الحياة متفقاً معه في تلك الدعوة فيقول[١٢] :

---

(١١) ديوان الشابي . دار العودة . بيروت ١٩٧٢ م . ص ٢٧٢ .
(١٢) شعر المهجر . الدكتور كمال نشأت . سلسلة المكتبة الثقافية . ع ١٥٠ القاهرة ١٩٦٦ م . ص ٣٩ .

يقولن عمّن أخذت القريض
وممّن تعلّمت نظم الدّرر
وأين درست العروض وكيف
تلقيت هذا البيان الأغر
وما كنت يوماً بطالب علمٍ
فإنّا عرفناك منذ الصغر
وقلت أخذت القريض صبياً
عن الطير وهي تغني السّحر

٢- الطير والطفولـــة

الطفولة صفحة خالدة في سفر الطهر والبراءة ، لذا ليس عجباً أن يكره الأطفال التعقيد ويلجؤوا إلى حياة البساطة والسذاجة ، بلا هموم ، مجرّدين من متاعب الحياة ومشقاتها .. لا يحفلون بشيء من تلك المصاعب التي ينوء بحملها الكبار .. تماماً يعيشون كالبلابل .. كالجداول .. كالزهور .. فيتذكر شاعرنا زمن طفولته فيقول(١٣) :

قد كنت في زمنِ الطفولةِ. والسذاجةِ، والطهور
أحْيا كما تحيا البلابلُ ، والجداولُ ، والزُّهور
لا نحفل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لا تدور

ولعل هذه الأبيات ، واضحة التشبيه والمدلول ، كما كانت سابقتها ، فنجد شاعرنا يرمز للأطفال بالأفرخ الزغب وأطيار الربى التي تمرح وتلهو دون هموم ، تسطّر للحياة ، أجلّ معاني السرور وأسماها .. فيقول(١٤) :

---

(١٣) ديوان الشابي . دار العودة . بيروت ١٩٧٢ م ص ٣٦٧ .

(١٤) من قصيدة مصاير الأيام للدكتور عزت شندي . مجلة الشعر المصرية . العدد ٧ / ١٩٧٧ م ص ٥٤ .

نشأنا مع الأيام كالأفرخ الزغب
نغرد ما شئنا على الفنن الرطب
وعشنا كأطيار الرّبـى فوق أيكها
نحط على الأغصان والماء والعشب
نطوف في الآفاق روحاً وجيئة
ونلقط ما يحلو وما طاب من حب

وكذلك ما جاء في قول الشاعر(١٥) :

عصافير تزقزق في رحابِ الدرس لا تدري
تثرثر مثل زُغبِ الطير في أحلامها النُضرِ
تناغي الصبحَ إذْ يبدو وتحكي روعة البدر
وتورق في محاجرها طيوفُ الحبِ والبشْرِ

ومن روائع شعرنا العربي المعاصر التي تصف الأطفال بصغار الطير خير وصف ، ما جاء في رائعة أحمد شوقي ــ مصائر الأيام ــ التي يصوّر فيها حركة الأطفال وألعابهم وانتظامهم في مقاعد الدرس ،

(١٥) أحلام السنابل . شعر على الزعبي . وزارة الثقافة والشباب . عمان / الأردن . ١٩٧٨ م . ص ١٢٧ .

وتهجئة الدروس بأصوات جذابة كالعصافير في زقزقتها العذبة ، حيث يقول[16] :

فراخ بأيكٍ فمــــن ناهض
يروض الجناح ومـن أزغب
مقاعدهم من جنـاح الزمـا
ن ، وما علموا خطر المركب
عصافير عند تهجـي الـدرو
س مهار عرابيد في الملعب
خليّـون من تبعـات الحيــا
ة ، على الأم يلقونها والأب

وعاطفة الأبوة العربية التي تشد الآباء وتدفعهم إلى الحنو على أبنائهم .. كانت ولا زالت عاطفة قوية متينة وأبناؤنا فلذات أكبادنا ، أغلى وأجمل ما في حياتنا ، نسهر عليهم الليالي الطوال ، ونتعهّدهم بالرعاية والحياة الكريمة ، كل ذلك يأتي في قول الشاعر ، فيشبّه الأطفال الصغار ، بأفراخ الطيور التي لم تكس بعد بالريش[17] :

---

(١٦) من قصيدة . «مصائر الأيام» لأحمد شوقي . مجلة الشعر المصرية . العدد ٧ . ١٩٧٧ م . ص ١٥٤ .

(١٧) الشوارد . ج ١ . عبد الله بن محمد بن خميس . الرياض . ١٩٧٤ م . ص ٢٩٩ .

وغالني الدهر بوفر الغنى
فليس لي مالٌ سوى عرضي
ولولا بنيات كزغب القطا
رُددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرضِ
وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم
لامتنعت عيْني من الغمض

وكثير غيره من الشعراء العرب وصَفوا أولادهم بفراخ الطير عطفاً عليهم ورحمة بهم ، ومن طريف ذلك ما قاله الحطيئة مستعطفاً خليفة المسلمين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بعد حبسه لهجائه الزبرقان بن بدر[(١٨)] .

---

(١٨) الطير في حياتنا وتراثنا . المحامي عبد القادر عياش . دير الزور / سورية . ١٩٦٧ م . ص ١٩ .

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

وللطير صداقة حميمة ، وثيقة العرى والروابط مع أدب الأطفال شعراً ونثراً ، وكأنهما حكر لبعضهما ، لا يفترقان ، ربما دعت إلى ذلك مسوّغات عدة ، منها البراءة والصدق ، وتجنب التعقيد اللفظي ، وسهولة الألفاظ والابتعاد عن الغموض في المعنى .. كل ذلك جعل ما يكتب للأطفال شهيّاً في طعمه وتذوقه كشهية لحم الطير ، وما الشاعر سليمان العيسى إلاّ واحداً من الشعراء الذين وهبوا بعض نتاجهم الشعري للأطفال ، يبث لهم أفكاره ، وهمومه وعواطفه الإنسانية ، يغنّي لهم بألفاظ رشيقة موحية[١٩] :

عصفور فرَّ من البردِ
وتسلّق نافذة عندي
عصفوريْ الحلو سأحميهِ

(١٩) من مقالة بعنوان «غنوا يا أطفال» مجلة الموقف الأدبي الدمشقية . العدد ٩٥ . آذار (مارس) ١٩٧٩ م . ص ١٣١

وسأطعمه وأدفيه
أوقد أوقد نار الموقد

وللطير رحلة طويلة يرفرف خلالها من سماء الطفولة البريئة ، وكأنه يمطر عليه قيماً وأفكاراً ثمينة ، ويحسن شعراؤنا في إثبات عادات واتجاهات جميلة في مخيلة أطفالنا بعد أن تكون تلك الاتجاهات قد ارتوت بمطر الطير ، محلّقين بهم مع إشراقة الحياة وزهوها الرائع ، ومن الذين حملوا عبء ذلك الشاعر ـ ممدوح السكّاف ـ في مقطوعته الشعرية بعنوان ـ أميرة ـ يقول فيها[٢٠] :

جارتنا أميرة بنيّة صغيرة
دقيقة القسمات وحلوة اللفتات
نظيفة مهندمة كالوردة المنمنمة
تفيق في البكور مع يقظة الطيور

(٢٠) المرجع السابق . ص ٨٣ .

٤ـ الطير وجمال الطبيعة

امتزاج روح الطبيعة بهبّات النسيم العليل ومناجاة الأغصان لبعضها البعض ، متمايلة في أعطاف النسيم ، وصدح الطيور وانتشاؤها .. فصورة تستوي النفس وتأسر الأفئدة والأنظار .. كل ذلك نجده في هذا القول[٢١] :

هَبّتْ سُحْيراً فناجى الغصن صاحبه
مُوسوساً ، وتنادي الطير إعلانا
ورق تغني على خضرٍ مهدّلة
تسمو بها وتشم الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب
والغصن من هزة عطفيه نشوانا

وعندما يأتي الربيع بجماله وزخارفه البهيجة ، تطمئن الطيور على غذائها ، فتجدها تطلق أصواتها الرخيمة ، فرحة جذلى ، تزقزق فوق الأغصان اليانعة الخضراء ، تمرح وتذهب وتجيء ، كأنها قد عرفت هذا الكون لأول وهلة .. تصفق للأشجار حتى تتمايل وتتراقص معها كلما

(٢١) مجلة أفكار الأردنية . العدد المزدوج (٣٦ ، ٣٧) أيلول ١٩٧٧ م . ٤٢ .

سكن النسيم العليل .. فالطير والربيع صنوان لا يفترقان في الأحاديث والأشعار .. كما تقول لنا هذه الأبيات[٢٢] :

تجد الوحـــوش به كفـــايتها
والـــطير فيـــه عتيـــدة الطعـــم
فظبــــاؤه تضحـــــي بمنتطـــــح
وحمامـــهُ يضحـــــي بمخــــتصم
إن الربيع لكالشباب ، وإن الصيـ
ــــف يكسعـــــه لكـــــالهرم
والروض في قطع الزبرجد واليا
قوت تحت لآلىء نُوم

مثلما يشرق الربيع بجماله ورقة اخضراره ، وعذوبة أطياره ، وانجذاب المرء لهما أيّما انجذاب يأتي الشعراء برقّة أحاسيسهم ومشاعرهم على إثبات قصائد تقطر عذوبة ونعومة ، يتوق لسماعها الناس بتلهف ، كما تاقوا من قبل لجمال الطيور والربيع .. تائهين منبهرين في ذلك الجمال الخلاّب[٢٣] :

---

(٢٢) ابن الرومي . عباس محمود العقاد . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٨ م . ص ٣٥٠ .
(٢٣) ديوان الشابي . دار العودة . بيروت ١٩٧٢ م . ص ٢٢٢ .

كان في قلبي فَجرٌ ، ونجومْ ،
وبحارٌ ، لا تُغَشِّيها الغيـــــــومْ
وأناشيـــــدٌ ، وأطيـــــارٌ تحوم
وربيعٌ ، مُشْرِقٌ ، حلوٌ ، جميلْ

وكأن غناء البلبل تعزية ومواساة لصاحب القلب الجريح «أبو القاسم الشابي» الذي ينوء بالهموم ويرزح تحت وطأتها ، فنجده يستعين بالبلبل ويطلب منه أن يغني .. ويغني(٢٤) :

أيُّها البلبل يا شاعر أحلام الربيعْ
غَنِّني إنّ على صوتك أنداء الدموعْ
غَنِّني فهو يريني أملَ القلب الصريعْ

أما المعتمد بن عباد فهو يتمنى أن يعيش هانئاً في أحضان الطبيعة ، بين غدرانها العذبة ورياضها الغنّاء بين أشجار الزيتون المباركة .. كل ذلك لينْتشي طرباً بأصوات الطيور وليعْزف على أوتارها أعذب سيمفونيات البهجة والجمال وأحلى موسيقى(٢٥) :

---

(٢٤) ديوان الشابي . دار العودة . بيروت . ١٩٧٢ م . ص ٥١٨ .
(٢٥) المختار من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . الدكتور محمد رضوان الدّاية . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق . ١٩٧٨ م . ص ١٠٧ .

فياليْتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً
أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ
بِمُنْبَتَةِ الزّيتون مورثةِ العُلى
تغني قِيانٌ أو ترنُّ طيورُ

ولمسات الجمال في الطبيعة ، لا تقف عند حد ، فها هو شاعرنا يطرّز لنا لوحة شعرية يجمع فيها أصوات الطيور وخرير الغدير ، وروائح الأزهار البريّة .. كل ذلك في مسحة رائعة من الجمال والبهاء ، من خلال هذه الأبيات :[٢٦] :

هذه روضة وهذي الطيور
تتناغى وللغدير خرير
وذكاء عند الأصيل طمى منها
على الكون عسجد منثور
فتمتع بما ترى من جمال الكون
وانس الذي تكن الصدور

---

(٢٦) أحمد رامي قصة شاعر وأغنية . الدكتورة نعمات أحمد فؤاد . دار المعارف بمصر . سلسلة اقرأ ٣٦٨ . يونيو ١٩٧٣ م . ص ٣٨ .

٥- الحزن

امتاز شعرنا العربي بتعدّد أغراضه وتنوّعها ، منها الحزن والكآبة والتحسّر ، الذي سرى في قصائد الكثيرين من الشعراء العرب ، فها هو شاعرنا يصف لنا أمر حاله ، ويشبّه نفسه بالطير التائه وبالحقل الذي هجرته الأطيار .. فغدا بذلك كئيباً فاقداً لنشوة الحياة ، حائراً في أمر ذاته ، فيقول آسفاً[(٢٧)] :

شُطِرَتْ مني «حياتي»
يا حياتي ..
فأنا رُوحٌ كطيْرٍ تائِه
رَفَّ ـ من شَوْقٍ ـ جناحَاهُ
بدُنْيا مأْتَم
وأنا جسْمٌ كَحَقْلٍ هاجَرَتْ أطْيارهُ
زأَرَتْ ريحُ الشِّتا في جَوْفِهِ
يا لَعَطْفِ الضَّيْغَمِ

---

(٢٧) من ديوان «نشوة الحزن» شعر محمد سعد المشعان . الرياض . ١٩٧٨ م . ص ٣٧ .

وها هو أبو فراس الحمداني يبث همومه ، ويكشفها على طائر الحمام الذي وقف قريباً منه ، ونجده يفرّج عن كربه وهمومه من خلال لومه وعتابه على ذلك الطائر ، حتى يشاطره تلك الهموم .. ليخفّف عنه شيئاً من عبئها الثقيل .. فيقول مهموماً[٢٨] :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيا جارتا هل تعلمين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالي أقاسمك الهموم تعالي

ومن شدّة التأسي والتحسّر عند الشاعر الشابي نجده يدعو العصافير والبلابل لأن تكف عن الأغاني المرحة ، وكأن لديه نزعة حزن متأصلة في ذاته ، اعتاد نغماتها في الحياة ، التي جعلت فؤاده مكلوماً لا تستهويه نغمات الفرح ..

وقد يعزى ذلك إلى أن الشابي كان مثقلاً بهموم شعبه الذبيح في مجزرة المستعمرين الغزاة ، فبات عليل الفؤاد ، مُثْخن الجراح .. وفي ذلك يقول[٢٩] :

---

(٢٨) مجلة الشعر المصرية . العدد السابع . القاهرة . ١٩٧٧ م . ص ١٥٥ .
(٢٩) ديوان أبو القاسم الشابي . دار العودة . بيروت . ١٩٧٢ م . ص ١٢٦ .

كف عن تلك الأغاني الباسمة

أيّها العصفْور !

فحيـاتي أَلِـفَتْ لحن الأسى

من زمان قد تقضّى ، وعَسَى

أن يثير الشَّدوُ في صمت الفوادْ

أنّةالأوتارْ... !

لا تغنّينـي أغاريـد الصبـــاحْ

بلبلَ الأفراحْ !

ففؤادي ، وهو مغمور الجراحْ

بتبـــاريح الحيـــاة الباكيـــــة

ليس تستهويه ألحان السرورْ

وأغاني النـوْر

وتأبى رقّة أحاسيس الشابــي مفارقة الطيور ، فكثيراً ما تتربّع الطيور في بطن أشعاره يبثّها أشجانه وينزف على روحها الساحرة شيء من جراحه وهمومه ، فلا ينفك أبداً عن مناجاة عصفور ، ولكن دون أن يَنْأى ولو بُرْهة عن ذكر ما حلّ به ، وبِقَوْمِه من توجعات وأنّات ، فها هو يحمّل أشعاره .. الشيء الكثير من ذلك(٣٠) :

---

(٣٠) انظر المرجع السابق . ص ١٩٠ .

يا أيها الشادي المغـرّد ههنـــــا
ثَمِــلاً بغبطــة قلبـــه المسرور !

قَبِّــلْ أزاهير الربيــع ، وغنِّهـــا
رنـمَ الصبـاح الضاحِك المحبـــور

واشربْ من النبع الجميل ، الملتوي
ما بين دَوْح صنوبَــر وغديـــــر

واتركْ دموع الفجر في أوراقهـا
حتـــى ترشفهـــا عروسُ النـور

فلـــرّبما كانت أنينـــاً صاعــــداً
في الليـل من متوجِّـعٍ ، مقهـور

ذرفتـه أجْفـان الصبـاح مدامعــاً
ألاّقةً ، في دوحـــــة وزهــــور

٦ـ التشاؤم

من أشأم الطيور عند العرب ، طائر الغراب ، الذي كثيراً ما يتطيّرون ويتعيّفون به ، وهو عندهم دلالة على الفرقة والتباعد والاغتراب ، قال بذلك ، حسّان بن ثابت[٣١] :

وبيّن في صوت الغراب اغترابهم
عشيّة أو في غصن بان فطربا

والغراب بصوته وشكله ، انطباع شؤم عند العرب ، وفي شدّة فزعهم من شؤمه فقد أسموه «غراب البين» وتناقلته الأمثال والأشعار على حد سواء ، ومن تلك الأشعار[٣٢] :

فيمّمت شيخاً منهم ذا بجالة
بصيراً بزجر الطير منحني الصلب
فقلت له : ماذا ترى في سوانح
وصوت غراب يفحص الوجه بالترب

(٣١) مجلة التراث الشعبي البغدادية . العدد العاشر . السنة العاشرة ١٩٧٩ م . ص ٨ .
(٣٢) المرجع السابق . ص ٢٦ .

فقال : جرى الطير السنيح ببينها
ونادى غراب بالفراق وبالسلب

وللعرب أشعار كثيرة في التطيّر والتعيّف من طائر الغراب ، الذي قد تُعزى إليه اشتقاق كلمتي غربة واغتراب ، كما في قول الشاعر[٣٣] :

تنادي الطائران ببين سلمى
على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى
وفي الغرب اغتراب غير داني

وعن شؤم العرب من الغراب أيضاً ، نستذكر ما قاله الأعشى بهذا الخصوص[٣٤] :

ما تعيف البوم في الطير الروح
من غراب البين أو تيس برح

وكذلك ما قاله الشاعر[٣٥] :

---

(٣٣) من كتاب عيون الأخبار «الحرب والفروسية» لابن قتيبة الدينوري . دمشق ١٩٧٧ . ص ١٢٦ .
(٣٤) مجلة التراث الشعبي البغدادية . العدد العاشر م . ص ٩ .
(٣٥) الشعر بين الجمود والتطور ، ط ٢ . العوضي الوكيل . مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٧٨ م . ص ٨٢ .

نأت دار ليلى وشط المزار
فعينـــاك ما تطعمـــان الكـــــرى
ومـــــــــر بفرقهـــــــــا بارح
فصدق ذاك غراب النـــــــوى

ولعل أجمل تعبير لغراب البين ، عن الغربة والفراق ، ما تقوله لنا هذه الأبيات عن غربة المسجد الأقصى الأسير ، تستصرخ همّة العرب المسلمين لفك غربته وفرقته[٣٦] :

صَاحَ في الأقصى غُرابُ البَيْنِ تِيْهاً
حِيْنَ تاهَتْ عَنْ حمَـــى الأقصَى صُقُــوْرُ
يا بني الإسلام قد داستْ رُبـاهُ
طُغْمَـةُ الأشْرار واشْتَـدَّ الهَجيْـــرُ
مَنْ لِديْنِ اللّهِ إنْ لَمْ تَنْصُروهُ
مَنْ لِبْيتِ اللّهِ إنْ عَزَّ النّصيرُ ؟

ولقد أخذ يُؤوّل كثيراً لفظ (طائر البين) لدى الناس العوام والرجال الذين مضى عمرهم إلاّ أقلّه ، كرمز للتشاؤم والجمود

(٣٦) نشوة الحزن . شعر محمد سعد المشعان ، دار الوطن - الرياض . ١٩٧٨ م . ص ١٧٠ .

والسوء .. وقد جاء في قول المتنبي[٣٧] :

أبني أبينا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ
أَبَداً غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعَقُ
نبكي على الدّنْيا وما مِنْ مَعْشرٍ
جَمَعْتُهُمُ الدّنْيا فَلَمْ يتفرّقُوا

وكذلك[٣٨] :

مالّ كأنَّ غرابَ البَينِ يَرْقُبُهُ
فَكُلّما قيلَ هذا مُجْتَدٍ نَعَبَا

ولدرجة أن تشاؤم العرب من هذا الطائر ، قد دفعهم إلى تسميته بعدّة أسماء ، منها (الغراب الأبقع) و (الغراب الأسود) وقد أشاروا إليها في أشعارهم بدلالات واضحة ، فمن ذلك ما قاله الحطيئة[٣٩] :

ذَهَبَ الذّينَ فِرَاقُهمْ أَتوقّعُ
وجَرَىَ بِبَيْنِهِمُ الغُرَابُ الأبْقُعِ

---

(٣٧) ديوان المتنبي . دار صادر . بيروت (ب . ت) . ص ٢٨ .

(٣٨) المختار من الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق . محيي الدين صبحي . دمشق ١٩٧٨ م . ص ٢٢٤ .

(٣٩) ديوان الحطيئة . المؤسسة العربية للطباعة والنشر . بيروت (ب.ت) . ص ٢٥٦ .

وكذلك قول النابغة الذبياني[٤٠] :

زعم البوارح ٱن رحلتنا غداً
وبذاك خبّرنا الغراب الأسود

أما صوت الغراب فقد رصدته الأشعار ، منفرّة منه ، يائسة من سماعه ، منها هذا القول[٤١] :

إذا اللجّامُ جاءَهُ لطارقِ
شحا لَهُ شَحْوُ الغُرابِ النّاعِقِ

ولئن كان البعض يسمونه نعيقاً إلاّ أن بعضهم يردفه في أشعاره على أنه« شحيحاً » كما جاء بذلك قول الأعشى[٤٢] :

إنّي أخاف الصُّرْمَ مِنْـ
ـها أو شَحيحَ غُرَابِها
قد خِلْتُ اذْ نامَ الرّقيـ
ـب دُونَ ثيابِها

---

(٤٠) مجلة التراث الشعبي البغدادية . العدد العاشر ١٩٧٩ م . ص ٨ .
(٤١) ديوان المتنبي . ص ٢٣٠ .
(٤٢) ديوان الأعشى الكبير . ميمون بن قيسْ . دار النهضة العربية . بيروت . ١٩٧٢ م . ص ٣٠٣ .

ومن الطيور التي يتشاءم منها العرب كذلك طائر البوم ، وهو طائر ليلي ، وقد يكون التشاؤم سحابة لا تدوم ، قد تعتري المرء أحياناً ، كما هي عند الدكتور زكي مبارك الذي استظل بالقلق والتشاؤم والحيرة فترة قصيرة ، أخذ بعدها ينشد مبرراً موقفه(٤٣) :

فقولـــوا لمن دأبـــه أن يرى
من العـــيش جانبـــــه الأسودا
إذا نعب البــــوم في روضة
فكـــم بلبـــل فوقهـــا غردا

(٤٣) مجلة أفكار الأردنية . العدد الأربعون . حزيران ١٩٧٨ م . ص ١١ .

٧ـ الحنو على الطير

الطيور ، تلك المخلوقات الصغيرة الأليفة في طبعها لا تؤذي الإنسان ، بل هي صديقة له ، تأكل بذور الحشائش الغريبة والفئران والحشرات الضارة ، وكثيراً ما يتباهى الإنسان بتربيتها ، ومن تلك عصفور الكناري المشهور بجمال ريشه وصوته .

ولم تخلُ أحاديث سيد المرسلين وخاتم النبيّين ، صلوات الله عليه وسلامه ، من غرس بذور الرحمة والشفقة والعطف على تلك الطيور ، فهاهو ﷺ يأمر أصحابه أن يعيدوا إلى حمّرة (عصفور) فرخها ، عندما رآها تفرّش (أي ترفرف باسطة جناحيها قرب الأرض) ويقول لهم :
« من فجع هذه بولدها ؟ ردّوا ولدها إليها »[٤٤] .

وعن زيد بن خالد الجهني رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تسبُّوا الدِّيكَ فإنَّه يُوقظُ للصلاة »[٤٥] .

---

(٤٤) مجلة العربي الكويتية . العدد ٢٢٠ ـ ١٩٧٧ م ـ ص ١٧ .

(٤٥) رياض الصالحين في كلام سيد المرسلين . أبي زكريا النووي . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٩٧٣ م . ص ٦٠٧ .

فكيف وكل ذلك .. لا يأخذ الشعراء على عاتقهم دعوة صريحة لبني البشر بعدم فجع وظلم تلك الطيور ؟![٤٦] :

ولا تفجعن الطير وهي غوافل
بما وضعت فالظلم شرٌّ القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح

وفي معرض الحديث عن الحنوّ على الطير ، يقال إن الحسن بن عبد الله المعروف بالبندنيجي ، رأى قمرية تنوح بباب الطاق في بغداد ، فابتاعها من صاحبها بمبلغ خمسمائة درهم وأطلق سراحها ، ثم أنشد قائلاً[٤٧] :

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمعي المهراق
فجعت بأفرخها فأسبل دمعها
إن الدموع تبوح بالعشاق

---

(٤٦) رجعة أبي العلاء : ط ٢ . عباس محمود العقاد . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٩٦٧ م . ص ١٦٩ .

(٤٧) مجلة العربي .. العدد ٢٣٣ . ابريل (نيسان) ١٩٧٨ م . ص ١٠٥ .

تعس الفراق وبت حبـل وتينـه

وسقـاه من سم الأساود ساقي

ماذا أراد بقصده قمريـــــــــة

لم ندر ما بغــــداد في الآفاق

إني سمعت بقصده فتبـــــــعتها

وعلى الحمامـة جدت بالإطـــلاق

بي مثل ما بك يا حمامة فاسألي

من فك أسرك أن يحلَّ وثاقي

الطير في المؤلفات والكتب العربية

الطير في المؤلفات والكتب العربية

تناول العديد من الكتّاب والمفكرين والأدباء الطير في مؤلفاتهم ، بالوصف والدراسة العميقة ، بل كل ما يتعلق بحياة الطير ، وقد كان الجاحظ سبّاقاً على غيره من العرب في هذا المضمار ، وذلك بوضعه لكتاب « الحيوان » الذي يبحث فيه فوائد الطير في حياتنا وأخطارها ، وكذلك أورد فيه الجاحظ ما قيل عن الطير من شعر وقصص وخرافات وفكاهة ، فجاء كتابه فريداً في شموليته ومحتوياته ..

وكتاب كليلة ودمنة[1] مصدر ثرّ للقصص والحكايات التي قيلت على ألسنة الطيور والحيوانات ، ومن أبواب الكتاب التي اشتملت على ذلك ، باب الحمامة المطوّقة ص ١٧٧ ، وباب البوم والغربان ص ٢٠٠ ، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ص ٣١٧ .

وفي كتاب ألف ليلة وليلة ، الذي يحاكي كتاب كليلة ودمنة في محتوياته ، نجده يحتوي على قصص وحكايات متعددة عن الطير والحيوان

---

(١) تأليف : بيْدبا الفيلسوف الهندي . تعريب : عبد الله بن المقفّع . مكتبة المحتسب . عمّان . الأردن (ب . ت) .

منها ـ حكاية أصحاب الطاووس والبومة والفرس ، وحكاية طائر الرخ[٢] وغيرها .

ولأستذكر كذلك ابن حزم الأندلسي ٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ / ٩٤٤ ـ ١٠٦٤ م في كتابه الشائع الذكر «طوق الحمامة» هذا الطوق الذي ضربت به الأمثال ، وتناقلته الأحاديث والأقوال .. هو أجمل ما في الحمامة .. وكان له أيضاً نصيب من الذكر على ألسنة الشعراء[٣] :

بلد أعارته الحمامة طوقها
وكساهُ ريش جناحه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مُدامه
وكأن ساحات الدّيار كؤوس

كما نجد الدكتور صبري القباني قد أفرد باباً خاصاً لحياة الطيور وهجراتها في مؤلفه القيّم « غرائب في مملكة الحيوان » ولا يفوتنا من

(٢) طائر الرّخ : طائر وهمي أسطوري . كما هو طائر الفينق . والسمندل . والسندباد البحري . والعنقاء . التي تناقلتها أساطير وخرافات اليونان والرومان والفرس والعرب والهند وغيرهم .

(٣) الوطن في الأدب العربي : إبراهيم الأبياري . دار القلم . القاهرة . نوفمبر ١٩٦٢ م . ص ٦٢ .

الذكر كشاجم وكتابه الطريف ، «المصايد والمطارد» وفي الكتب العربية القديمة التي عالجت موضوع الطير وأكثرت من الحديث عنه ، واستضافته في العديد في صفحاتها ، نجد منها[٤] :

١ ـ حياة الحيوان الكبرى للدّميري .

٢ ـ عجائب المخلوقات للقزويني .

٣ ـ فضل الخيل لعبد المنعم الدمياطي .

٤ ـ الاعتبار في صيد الباز لأسامة بن منقذ .

٥ ـ البيرزة لبازيار العزيز بالله الفاطمي .

والكتب العربية المصنّفة حديثاً لا تخلو من ذلك ، نذكر منها[٥] :

١ ـ معجم الحيوان ـ للفريق أمين المعلوف .

٢ ـ الطيور المصرية ـ لعبد الله النجومي وآخرين ، صدر في القاهرة عام ١٩٤٧ م .

٣ ـ الطيور العراقية ـ للدكتور بشير اللوس في أجزاء ثلاثة صدر في بغداد عام ١٩٦٠ م .

---

(٤) الطير في حياتنا وتراثنا : المحامي عبد القادر عيّاش . دير الزور . سورية ١٩٦٧ م ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٥) المرجع السابق .

٤ ـ وكتيب عالم الطير في مصر ـ لأحمد محمد عبد الخالق ـ صدر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية عام ١٩٦٢ م في القاهرة .

ومكتبتنا العربية غنية وحافلة بمؤلفاتها القديمة عن الطير ، وربما تربو عليها المؤلفات الحديثة كماً ونوعاً ، عدداً وتنوعاً ، وكأن الطير والحالة هذه قد أصبحت ملهمة الأدباء والكتاب في هذا العصر ، نذكر منهم أحمد شوقي في ديوانه «الشوقيات»[٦] الذي نظم فيه حكايات شعرية على لسان الطير ، الأمر الذي أكسبها جاذبية أكثر للأطفال ، وكأن شوقي قد قصد الإكثار من ذلك في هذا الديوان ، بغرض الإثارة وجذب الأذهان قدر المستطاع ، بأسلوب شعري مبسّط يقطر عذوبة ورقة ، غاية في السهولة والوضوح ، بعيداً عن الملل والسأم والتعقيد والبهرجة اللفظية التي يغرق فيها كثير من الشعراء .. ومن تلك القصائد التي أنطق فيها شوقي الطير ، قصيدة ـ سليمان والهدهد ـ التي يقول فيها[٧] :

---

(٦) نظم الشاعر المذكور في الجزء الرابع من هذا الديوان . قصائد شعرية شائقة للأطفال تجسّدت فيها الطيور بشكل واضح ومباشر نذكر منها : ـ الصياد والعصفور ـ ص ١٥٢ . سليمان والطاووس ص ١٢٤ ، اليمامة والصيّاد ص ١٧٢ ، البلابل التي ربّاها البوم ص ١٢٧ ، القبرة وابنها ص ١٥٧ ؛ ... .

(٧) ديوان الشوقيات ـ أحمد شوقي ـ الجزء الرابع . دار الكتاب العربي . بيروت (ب.ت) . ص ١٥٣ .

وقف الهدهد في با ب سليمان بذلّة
قال : يا مولاي ، كن لي عيشتي صارت مملّة
متّ من حبّة برٍّ أحدثت في الصدر علة

حيث يطلب فيها الهدهد من سيدنا سليمان أن يقف إلى جانبه ، ليفرّج عنه كرب الحياة التي يشكو منها ويتذّمرها .. ومن الكتاب والأدباء والمؤلفين الذين حملت مؤلفاتهم أسماء الطير ، الدكتور طه حسين في كتابه «دعاء الكروان» وعباس محمود العقاد في كتابه «هدية الكروان» وكذلك الشاعر محمود درويش في ديوانه «عصافير بلا أجنحة»[٨] ، والشاعر الأردني مهنّا محمود أبو غنيمة[٩] في ديوانه «أغاني طائر النورس» ، والشاعر المغربي محمد علي الربّاوي في أشعاره التي كتبها للأطفال في ديوان «عصافير الصباح» والشاعر الحلبي مصطفى النجار في قصائده النثرية« شحارير بيضاء » وغيرهم .

وفي عالم القصة القصيرة نستذكر ياسين رفاعية في مجموعته

---

(٨) صدر في الأرض المحتلة ، تدور أشعاره حول حركات التحرّر الافريقية .
(٩) من مواليد مدينة إربد في شمال الأردن .

القصصية «العصافير تبحث عن وطن»[10] وزكريا تامر[11] في مجموعته التي كتبها للأطفال «الحمامة البيضاء» ، والآنسة لينا كيلاني في «العصافير لا تحب الزجاج»[12] ، وهي قصص للأطفال كذلك .. وما ترجمهُ عيسى فتورة من سورية ، للأطفال من قصص وحكايات في كتابه « مدرسة اللقلق»[13] ... وغيرها كثير جداً □□□

---

(١٠) تضم إحدى عشرة قصة قصيرة ، صدرت عن دار المسيرة في بيروت . ١٩٧٩ م .

(١١) قاص سوري مبدع ، خصصّ معظم كتاباته للأطفال .

(١٢) نشرت بمساعدة اتحاد الكتاب العرب . دمشق ، وتضم إثنتي عشرة قصة قصيرة ، وفي إحدى وسبعين صفحة من القطع المتوسط .

(١٣) صدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق .

المراجع والمصادر المعتمدة

١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي .
دار الكتب المصرية . القاهرة / ١٩٤٥ م .

٢ ـ لسان العرب . الجزء الرابع . ابن منظور .

٣ ـ القاموس المحيط . الجزء الثاني . مجد الدين الفيروز أبادي .

٤ ـ المعجم الوسيط . الجزء الثاني . مجمع اللغة العربية .
القاهرة . ١٩٦١م .

٥ ـ المنجد في اللغة والأعلام ، الطبعة الثانية والعشرون .
دار المشرق . بيروت .

٦ ـ الحيوان . الجزء الثالث . الجاحظ .

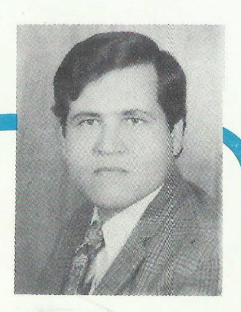
٧ ـ آثار ابن المقفع .
مكتبة الحياة . بيروت (بلا تاريخ) .

٨ ـ كليلة ودمنة . ترجمة عبد الله بن المقفع .
مكتبة المحتسب . عمّان / الأردن (ب . ت) .

٩ ـ الحركة الأدبية والفكرية في تونس . محمد الفاضل بن عاشور .
الدار التونسية للنشر . تونس . ١٩٧٢ م .
١٠ ـ الأدب الفلسطيني الحديث . عبد الرحمن ياغي .
سلسلة المكتبة الثقافية (٢٢٥) . القاهرة . ١٩٦٩ م .
١١ ـ خواطر في الفن والقصّة . عباس محمود العقاد .
دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٧٣ م .
١٢ ـ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور. الدكتور شوقي ضيف.
دار المعارف بمصر . ١٩٧٧ م .
١٣ ـ حياتي في الشعر / ط ٢ . صلاح عبد الصبور .
دار العودة . بيروت . ١٩٧٧م .
١٤ ـ ديوان «أنت الرياض» الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي .
القاهرة . ١٩٧٧ م .
١٥ ـ غناء وشجن . شعر محمد سراج الخراز .
سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ٢٢ . الرياض ١٩٧٧ م .
١٦ ـ قاطع الطريق . شعر أحمد قنديل .
سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ٢٠ . الرياض (بلا تاريخ) .

١٧ ـ أطياف من الماضي / ط ٢ . شعر محمد عبد القادر فقيه .
سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ١٤ . الرياض ١٩٧٨ م .
١٨ ـ المختار من حماسة أبي تمام . مطيع ببيّلي .
دمشق . ١٩٨٧ م .
١٩ ـ المختار من كتاب الإمتاع والمؤانسة / ق ١ . دكتور إبراهيم الكيلاني . دمشق / ١٩٧٨ م .
٢٠ ـ الطيور / ط ٢ . برتا موريس باركر . ترجمة دكتور محمد كامل هندي . دار المعارف بمصر . نوفمبر / ١٩٦٨ م .
٢١ ـ مجلة أفكار الأردنية ـ العدد الثاني . تموز ١٩٦٩ م .
ـ العدد (١٥) . نيسان ١٩٧٢ م .
٢٢ ـ مجلة العربي الكويتية ـ العدد (١١٤) . آيار ١٩٦٨ م .
ـ العدد (١٢٤) . مارس ١٩٦٩ م .
٢٣ ـ مجلة الثقافة العربية ـ العدد (٧) . تموز ١٩٧٩ م .
ـ العدد (١١) . تشرين الثاني ١٩٧٥ م .

٢٤ ـ مجلة الفيصل السعودية ـ العدد الثامن . يناير ١٩٧٨ م .
٢٥ ـ مجلة قافلة الزيت السعودية . أكتوبر / نوفمبر ١٩٦٩ م .
٢٦ ـ مجلة الموقف الأدبي الدمشقية .
العدد (٩٢) . كانون الأول ١٩٧٨ م .
٢٧ ـ مجلة هنا لندن . العدد (٢٩٧) . تموز ١٩٧٣ م .



الكاتب بقلمه

ولدت عام ١٩٥٤ في مدينة المشارع من أعمال الأغوار الشمالية بالأردن.
كما نشأت وترعرعت في أحضانها - وتلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي في
مدارس الأغوار الشمالية، وأتممت دراسة كلية تدريب المعلمين / بعمّان العاصمة
نشرت عشرات المقالات الأدبية والتربوية والتاريخية في صحف ومجلات
أردنية وعربية. ولدي الآن ثلاثة كتب مخطوطة..
وأنا الآن عضو منتسب في نادي مكة المكرمة الثقافي، وعضو
جمعية المكتبات الأردنية، وعنواني الدائم:
ص.ب ٦ المشارع - الأغوار الشمالية / الأردن

مطابع الفيصل/ هاتف ٤٤٨٦٤٢٧/٤٤٨٣٧٨٤